

الفصل الخامس

الحضارة والثقافة

عرف الحضارة العلامة الفرنسي شارل ريشيه، في كتابه « ماهي الحضارة » ، فقال إنها مجموع الآراء والعادات الناشئة عن الجهود التي تبذلها الأمة في ميادين العلوم والفنون والصناعات والدين . فالذي يميز الأمة المتحضرة عن الأمة التي لا تزال في طور الهمجية والتوحش هو العوامل التالية :

العامل الأول هو العلم : فالشعب الذي استطاع علماءؤه الكشف عن متعدد أسرار الطبيعة ، والذي وقف بعد جهاد طويل على معرفة حركة الأرض مثلاً ودوران الأفلاك وأسباب الأمراض وما إلى ذلك من نواميس الكون . هو شعب تفوق على سواه وقطع شوطاً بعيداً في ميدان الحضارة

ومن شروط التحضر الرئيسية ألا يكون العلم وقفاً على طبقة دون طبقة ، والا تنحصر المعارف في دائرة رجال العلم وحدهم . بل تنحدر منهم إلى سواد الأمة بحيث يصبح الأفراد جميعاً وقد جاوزوا الطور البدائي الغريزي أقرب إلى فهم أسرار الطبيعة وأقدر على معالجتها واتقاء أخطارها

ولقد كانت العلماء في القرنين السابع عشر والثامن عشر يحرصون
الحرص كله على أسرار مكتشفاتهم . وكان البعض منهم يخشى المجاهرة بها إلا
تصطدم نتائجها بالتقاليد البالية أو الحرف الاجتماعي السائد أو العقائد
الدينية العامة . أما اليوم فقد ساعد وجود الصحف والجمعيات العلمية والمؤتمرات
على نشر العلوم وإذاعة أنباء المكتشفات وترويجها بين عامة الشعب
فمما التبدل الملحوظ هو تقدم مطرد في سبيل تعميم روح الحضارة أي
في سبيل توكيد الغرض المقصود منها

والواقع أن شيوخ كلمات (بارومتر) و (ترمومتر) و (ميكروب)
و (أو كسجين) وغيرها وانتشار هذه المصطلحات العلمية بين طلبة
المدارس ، يدل أبلغ الدلالة على تمكن سلطان العلم من الأغليات الساذجة
وعلى أن هذه الأغليات قد بدأت تفهم الظواهر الطبيعية عن طريق العقل
لا عن طريق الخيال والتصور كما كانت الحال في العصور الأولى .
وهذا المظهر هو أجل مظاهر الحضارة وأروع غاية من غاياتها إذا
ما قورن بمظهر الحياة ومظهر العقل عند قبائل الاسكيمو والهوتنتوت
وعليه فمن قد تحضرنا وهؤلاء ما يزالون ساجدين في خيالات الفطرة
الجامحة العمياء .

ولكن الصحف والجمعيات العلمية والمؤتمرات لا تكفي لنشر العلم بين
سواد الشعب وتحقيق غاية الحضارة . ولا بد من تنظيم التعليم الإلزامي العام
تمهيداً لنشر المكتشفات العلمية والارتقاء بعقلية الشعب ودفعاً به في طريق
البحث والاستقصاء والمعرفة

وإذن فالحضارة من الناحية العقلية تتألف من عنصرين وهما :
نشر المعارف بين سواد الشعب وتقديم هذه المعارف واتساع نطاقها
على أيدي علماء أفاضل تسهل لهم الحكومات سبل البحث والكشف والارتداد
والعامل الثاني الذي يميز الأمة المتحضرة هو التقدم المادي
أي اختراع المادة لأرادة الإنسان ورغباته واحتياجاته . فكلمة تحرر
الفرد من سلطان الأشياء وكلمة استطاع تسخير المادة لمصالحه اقتراب
من الإنسان المتحضر . والحقيقة أن تضيق المسافات التي تفصل بين
الناس وتقصير مدة الزمن التي تستخدم لاجتياز تلك المسافات من
أكبر الجهود الدالة على التحضر ؛ لأن الغرض منها هو التفوق على
الفضاء والوقت والزمن وتسهيل المواصلات لنعاش التجارة والصناعة
أي لتوكيد التقدم المادي

فاستخدام البخار وإنشاء السكك الحديدية يدل وجه العالم
وضاعف شعور الناس بمعنى الحضارة وقيمتها . وكذلك اختراع
المطبعة والطيارة والتلغراف والكهربائي واللاسلكي - كل هذه الجهود
قد ساعدت على التقدم المادي العام وساهمت في نشر الرخاء والمسررات
وأذاعت مختلف العلوم والفنون ؛ ووحدت بين أجزاء العالم وحققت
الغرض المقصود من الحضارة وهو نفع الجميع وتسخير الطبيعة لمصلحة
الجميع ووضع العلم تحت تصرف الجميع . فكلمة انصرفت جهودنا نحو
هذا الغرض واستطعنا أن نضيف قوة عملية جديدة إلى هذا القوى

العملية الرائعة؛ اشد ايماناً بمقدرتنا البشرية وعززنا في نفوسنا كرامتنا
الانسانية وازددنا حضارة وتقدماً ودفعنا بعجلة التطور إلى الامام .
ولاشك في أن اختراع الآلات والسعى المطرد لتحسينها من
أبلغ الدلائل على التحضر أيضاً لان الآلة تخفف عن الانسان عبء
العمل . وتنتج في يوم واحد بواسطة رجلين ما كان يعجز عن انتاجه
فيما مضى عشرة رجال مجتمعين . وهكذا تخفض الآلة قيمة المصنوعات
وساعات العمل وتتيح للعمال فرص الراحة والتثقف والاستمتاع
بالحياة

وما يسرى على اختراع الآلات يسرى على المكنشحات والعلوم
الطبية أيضاً ، فهي تكافح المرض والالم والموت . وترمى الى الغاية نفسها
أى الى مضاعفة الاستمتاع بالحياة ومضاعفة القدرة على العمل
والتثقف والسعادة

او عليه فالعلوم الطبية والطبيعية والكيمائية . العالم المادى لسلطاننا
وتساعد كل المساعدة على تحضرنا بدليل اننا نفتتح بكل شئ عن
طريقها في حين أن الرجل المتوحش ؛ الذى يحملها يعيش فى عالم مغلق
محدود لا يعرف أن بضعة أحجار سوداء يمكن ان تنتج حرارة وقوة
وأن هناك آلة تزيد فى محصول الارض . وأساليب وطرائق الصنع
الالوان والعطور والعقاقير ومختلف المناهج والمتع . وان هناك

معجزات أخرى سوف تتلخص عنها حضارة الغد

والعامل الثالث الذي يميز الأمة المتحضرة هو العادات والأخلاق
إذا أية فائدة من الحضارة المادية بالغة ما بلغت من الرقي أن هي لم تقترن بعادات
خيمة وأخلاق سامية وأمثلة روحية عاليا .

أية فائدة من الحضارة المادية إذا كان الفرد لا يعرف حق المعرفة ما
هو واجبه الاجتماعي بواجبه السياسي وواجبه العائلي ، وما هي مسؤولياته
حيال وطنه وحكومته وأسرته والإنسانية جمعاء ؟

الواقع أن العادات والأخلاق أبلغ في الدلالة على التحضر من الرقي
العلمي المادي ، وقد عرف التاريخ شعوبا سرعان ما انحطت حضارتها بانحطاط
أخلاقها وسرعان ما انحطت حضارتها بانحطاط أخلاقها وسرعان ما تقلصت
جهودها الفنية بتقلص عناصر المتانة والصرامة والجد في أخلاقها

وما نفع استغلال قوى الطبيعة والتغلب على المادة والبقاء على وفيات
الأطفال وتنظيم سرعة المواصلات وتنشيط التجارة والصناعة وإنتاج عباقرة
في الآداب والعلوم والفنون ، ما نفع كل هذا وقد ازدادت نسبة الاجرام
واشتعل شر الدعارة ، وانحطت الأخلاق السياسية ، وفشت روح وضولية
وقضى على عناصر الاستقامة والنزاهة والتضحية في الحياة العامة ؟ لا شك
أن رقي الأمة لن يقيها في هذه الحال خطر السير شيئا فشيئا نحو الانحطاط
والعدم

ويرى شارل ريشيه أن من مستلزمات الحضارة الصحيحة أن يقترن
التقدم المادي بالتقدم الخلقى يسايره جنباً إلى جنب وإلا أصبحت الأمة

كالشخص السكسيح لا ينهض الا ليقع .

أما العامل الرابع الذي يميز الأمة المتحضرة هو الحرية فمحرية النظم السياسية التي تسمح بازدهار العلوم والفنون والفكر البشري نفسه والتي تحرر الفرد سلطة الحكم على الأعمال العامة ومناقشتها ومحاولة اصلاحها الاشتراك في بحثها وتوجيهها مع قادة الرأي ورجال الدولة . فلا وجود للحضارة بدون هذه الحرية . ولا معنى للحضارة مع الاستبداد . ومن المحال انشاء حضارة بلا قانون عادل يسيطر على الجميع ويحترمه الجميع ويساوى بين الجميع سواء في ذلك الحاكم أو المحكوم .

ولكن من طبيعة القانون أن يكون صارماً قاسياً شديداً لوطأة . ولذلك لا تتحقق الحضارة المثلى في أمة من الأمم إلا إذا لازمت القوانين عواطف التضامن والتسامح والمحبة والرأفة ، وتغلغلت في قلب كل فرد وجعلته يستغنى بهذا الطاقة عن الاحتكام الى القضاء والاتجاه الى القانون طلباً للانصاف والعدل . وهذا انطور لا يمكن أن يتم إلا بعد جهاد طويل شاق تشترك فيها الآداب والفنون فتمزج المشاعر وتلطف الأهواء وتقرب بين الأفتدة والعقول .

أما العامل الخامس الذي يميز الأمة المتحضرة فهو الفن . ولكن بعض الناس يعتقدون أن الفن من كاليات الحياة ، وأن لا حاجة بالفرد الى حب الفن وفهمه وتذوقه كي يكون انساناً متحضراً وتذهب فئة كبيرة الى أن الفن ليس من مقومات الحضارة الأولى وأن الحضارة نفسها قد تسمع وتزدهر بلا فنون رفيعة كما هي الحال اليوم في أمريكا مثلاً .

والواقع أن أصحاب هذا الرأي يغالطون مغالطة واضحة وينسكرون
الحقائق الأبدية التي يقوم التاريخ شاهداً عليها
ويرى شارل ريشيه أن لاهضارة بالمضى الحقيقى إلامى اقترنت بالثقافة
فلئن كانت أمريكا بلاداً متحضرة من الوجهة المادية ، أى من حيث التنظيم
الصناعى والاقتصادى ، ولكنها ماتزال متأخرة من الوجهة المعنوية ، أى
من حيث الرقى الفكرى والوجدانى وأبدى الطرائف الخالدة فى الآداب
والفنون . وفى أمريكا مصانع عظيمة وناطحات سحب رائعة وأنظم اجتماعية
واقتصادية تعود بالرخاء المادى على أغلبية الشعب ولكن ليس فيها حركات
أدبية وعلمية متغلغلة فى مجموع الأمة وليس فيها طائفة من كبار الفنانين والادباء
تنتج أعمالاً فكرية ممتازة وتستطيع أن تؤثر فى عقلية الأمة نفسها وفى اتجاهها
المعنوى بحيث يتعادل الرقى الاقتصادى مع الرقى الفكرى والاحساسى
لتكامل عناصر الحضارة

ومما لا يقبل الريب أن أمريكا أخرجت نفراً من كبار الأدباء وبعض
كبار الفنانين . على أن هذا النفر استطاع الظهور بمجهود الشخصى وعلى
الرغم من ارادة سواد الشعب الذى يؤثر الاستماع بالرخاء المادى والعمل
فى سبيل هذا الرخاء على الاستماع بالآداب والفنون
إن ذلك النفر من الفنانين والادباء لم يكن فى مقدوره تبديل عقلية
الشعب وحمله على حب الفنون والآداب حباً صادقاً عميقاً وجعلها من
صمومات الحياة لعظم سيطرة الفكرة المادية على ذلك الشعب الفنى المولع
بالشؤون العملية لحسب ، واذن فى وسعنا أن نقول إن فى أمريكا شروعا

في انشاء حضارة ما تزال تنقصها الثقافة . وإن فيها ضرباً منوعة من الرقي المادى ولكن ليس فيها تلك الشعلة الفنية والادبية التي ترفع مستوى الشعب وتسمو بنفوس أفراده وترقى بأرواحهم وتفصل ميولهم ومشاعرهم وتوازن في عقولهم بين مطالب المادة ومطالب الروح

فهذا التوازن المنشود هو دليل الحضارة الصحيحة وهو نتيجة ازدهار الثقافة . يختلف فروعها ولا سيما الفن . والحقيقة أن هناك فارقاً كبيراً بين الرجل الأمريكى المتوسط والرجل الأوروبى المتوسط . فالأول ينظر الى شتى مولدات الذهن البشرى نظرة مصلحة ويحاول اخضاعها جميعاً لحكم المصلحة أى للنفع المباشر المحسوس ، أما الثانى فمع تمسكه بمصلحته ودفاعه عنها وتعلقه الشديد بها ، ويميل الى تثقيف عقله ونفسه بالفنون والآداب تثقيفاً نزيهاً لا يعود عليه بأية فائدة عملية بل يعود على جوهر نفسه بفائدة معنوية مجردة ولذة روحية تجد نهايتها في نفسه .

وقد يتبرم الأمريكى مثلاً بقضاء جزء من وقته لمشاهدة معرض صور فنية ، ويعتقد أن هذا الوقت ضائع ، وأن معرض الصور يتطلب اليه أن ينعم بالنظر ويفكر ويفهم ويتذوق ، في حين أن فى استطاعته أن يستخدم ههنا المجهود الفكرى فى عمل يستدر منه المال ، أو يستخدم ذلك الوقت فى الذهاب الى قاعات الرقص أو دور السينما فيتسلى ويلهو وينسى عناء النهار ويعود مجدد النشاط لاستئناف عمله المادى من أجل المادة أيضاً

هكذا ما يدور فى خلد الأمريكى المتوسط ، وهكذا ما يفكر فيه أما الأوروبى المتوسط فهو معجب بالفن ويسجده الادب الرفيع

ويحاول أن يفهم ويتذوق هذا وذلك ولا يجد أية غضاضة في التفكير في عمل فني وهو يعلم على اليقين أن مجوده لن يعود عليه بأية فائدة مادية في وهذه الظاهرة الملحوظة في معظم الاوربيين هي الدليل البالغ على أن أوربا حضارة عريقة في العنصر الثقافية تمتاز عن حضارة أمريكا بهذه الثقافة نفسها وتأصلها في نفوس أصحابها واعتبار هذه الشعوب حب الظواهر الفكرية لذاتها لا تعرض معين .

معنى الثقافة

هذا ما يقال عن الحضارة أما الثقافة فهي : في المعنى الأوسع ممارسة طرق العيش والتفكير والشعور وهي تشمل التربية والعلوم والفنون والعادات والعادات الاجتماعية والحديث والمجاملة والزواج والطلاق، والقوانين والحرية .

الفصل السادس

منشأ الحضارات القديمة

عند الكثيرين من المؤرخين أن الحضارات القديمة قد بدأت في مصر أو بابل أو فيم، في وقت واحد وإمتدت من إحداهما الحضارة التي ظهرت في آسيا وأوروبا . وعند آخرين أن حضارة كل أمة مستقلة عن غيرها ذلك لأن أسباب قيام الحضارات هو طبيعة الأرض فنشأت الحضارات عند مجارى الأنهر وحيث تسقط الأمطار الخصبة وسواحل البحار ، وعلى هذا ليس يبعد أن لا تكون هناك أية صلة بين بناء أهرام مصر وبين بناء المباني الهرمية في أمريكا